

أصول النحو العربي: (نظري)

السنة الأولى. ماستر. لغة عربية. فوجان: (الفوج 1 + الفوج 2) الأستاذ: بوكعباش

القياس عند اللغويين المحدثين

اللغويون في العصر الحديث، يتخذون المنهج الوصفي، في دراسة اللغة، ويتحاشون المنهج المعياري، الذي يهتم بما يجب أن يكون، (الصواب، والخطأ، ولأغراض تعليمية) لا بما يقع، للغة، بعيداً عن الأحكام الاجتماعية والتعليمية، فالصواب والخطأ، والقبح والحسن، للألفاظ والتعبيرات اللغوية، مواقف غير علمية ولا موضوعية، في المنهج الوصفي، فالجماعة اللغوية، المستخدمة للغة، هي سيّدة، في كلّ مظاهر اللغة وجزئياتها، ولا تُعَلَّل الظواهر فيها، إلا بالعودة إلى خيارات هذه الجماعة وتفضيلاتها، عبر الزمن الماضي، من تاريخ الجماعة.

النظرة الوصفية والمعيارية:

اللغة القومية، أو اللغة المشتركة، أو اللغة الأدبية، لكل أمة أو جماعة لغوية، تحظى باحترام كبير، لأنها مخزن دينها وتراثها الفكري والاجتماعي، ولا ترغب هذه الجماعة أن تدرسها، إلا بواسطة المنهج المعياري: (الخطأ والصواب)، لأنها تسعى إلى الحفاظ على تراثها، بتعلم لغة الأجداد وتعليمها، بل ومقاومة أيّ تغيير، يحدثه الزمن في هذه اللغة، فتتظر لهذه التغييرات في اللغة المشتركة، والتي تسمى: اللهجات المحليّة، على أنها احراف، أو فساد، أو: (لحن) يزحف إلى لغتهم الأدبية الجميلة، ولكن لا بد من التسليم، بأن هناك فرقاً، بين مهمة الباحث اللغوي، التي تتلخّص في وصف ما يلاحظه من ظواهر لغوية، بدقة وموضوعية، وبين مهمة الأستاذ أو المعلم، في أطوار التعليم ما قبل الجامعة، وهو يرشد تلاميذه إلى قوانين لغتهم وقواعدها، ويهديهم معايير التفرقة بين الصواب والخطأ.

العرف اللغوي:

اللغة نظام عرفي اجتماعي، فالعرف، والحس المشترك، بين أعضاء الجماعة اللغوية هو الذي يحدّد معايير الاستعمال، والصواب والخطأ، في الأصوات والتراكيب والاستعمالات، والمتكلم المنتمي لهذه الجماعة، شديد الانتباه لكل حياد، مهما كان ضئيلاً، عن العرف اللغوي السائد، في جماعته، وهو حريص على الخضوع له وتطبيقه، ثم: الحفاظ عليه، فالنظرة المعيارية إلى اللغة، ضرورية، من أجل التربية والتعليم والحفاظة على التراث، وتعزيز وتطوير اللغة القومية المشتركة، وتحسينها من سيطرة اللهجات المحليّة، ولكن، الدراسة الموضوعية للغة، ينبغي تتوسل بالمنهج الوصفي، الذي يقوم على الملاحظة والتسجيل، لما هو قائم ومستعمل في المجتمع، دون تدخّل منه معايير الصواب والخطأ، وهذا ما يفيد اللغة الأدبية المشتركة ويطوّرها، في الوقت نفسه.

القياس عند المحدثين:

يفهم المحدثون القياس، مقروناً بالملكة الطبيعية عند الإنسان، في تعلّم اللغة واكتسابها، فهو عند دي سوسير، عبارة عن عملية تقليد ومحاكاة، يقوم بها الطفل، أو مكتسب اللغة، على شكل: (صيغة)، مفردة، جملة، أو نص، محاكياً بها صيغة

أخرى: (مقيس عليه، مسموع مستقر في ذهنه)، فالصيغة القياسية: (العبارة المنجزة، القياس)، هي الصيغة التي وُضعت طبقاً لصيغة أخرى، ذات تقبل عرفي، أو مهني تعليمي ثابت: (المقيس عليه). وقد وضع لها ما يشبه معادلة حسابية

Órátorem = Órátor إذن : honorem = honor. إضافة حرفين :

(e.m)، لجمع المفرد، كما نَهتكم، في أحد الدروس، على ما يفعله أحدكم في قياس مجهول على معلوم، إذا كانا متشابهين، ويسمى الشبه : الجامع، قرينة = قرائن، في الجمع. إذن : كبيرة = كباثر، لكن : معيشة ≠ معاش، لأن معيشة ≠ كبيرة. لأن معيشة = مفعلة . والجمع = مفاعل، وجمع معيشة = معاش، وهكذا قياس النظر على نظيره.

القياس الخاطي وتطور اللغة:

والقياس عند دي سوسير، لا يتوقف على وجود صيغة مثالية كاملة نموذجية تُحتذى، فالصيغة الجديدة المنجزة، تعدّ قياسية، ولو نسجت على منوال خاطي، وهو ما يعدّه كثير من اللغويين : شاذّاً لا يقاس عليه، فالشاذّ يتحوّل، بمرور الزمن، إلى قياسي، فالوضع العام للغة العربية، في القرن الأول الهجري، أو عصر الاحتجاج، لا ينبغي أن يستبدّ بالشرعية اللغوية إلى الأبد، دون غيره من العصور اللاحقة عليه، وبهذه المساواة في الشرعية اللغوية تبيح اللغة لنفسها بالتطور والتجديد.

كيف يستقر الاستعمال الجديد (القياس الخاطي) ويصبح جزءاً من اللغة ؟

يقول دو سوسير: لا شيء يدخل صلب اللغة، (وهي ظاهرة جمعية لا فردية) إلا بعد اجتيازه عتبة الاستعمال الفردي، بواسطة متكلم ما، في فترة ما (الكلام، إنحاز فردي)، وهكذا جميع ظواهر اللغة، إنما تبدأ بإنجازات وتأديت (فردية)، ثم تتحوّل إلى ابتداءات قياسية، مع الزمن، فالكلمة: (استعوض) يعدّها اللغويون شاذّة، رغم أنها سماعية (قرآن كريم)،: (استحوذ عليهم الشيطان)، عاض = حاذ ، فلماذا نقول في الأولى: (استعاض عنه بآخر) مثلاً، ولا نقول: (استعوض عنه بآخر)، رغم أنه جاء: (استحوذ) في القرآن ؟

إذن، (استحوذ) قياسية، لا شاذّة، طالما أنها استقرّت وصارت جزءاً من النظام اللغوي الثابت.

وقد ربط بعض اللغويين المعاصرين فكرة القياس الخاطي، بفكرة التوهم، عند القدامى، الذي تتحول به العبارة إلى جائزة بمرور الوقت، فاللفظة: (مُصيبة) لا تجمع على : مصائب، بل : مصيبات، لأن : جمع مُفعلة على مُفعلات، لا : فعائل، قياساً على : نصائح، (لأن : نصيحة ≠ مصيبة) حتى نقيسها عليها، وكما قلنا: إن عملية القياس، لا نجريها إلا بين لفظين متشابهين، في كل شيء. ولكنهم قالوا: جمعت مصيبة على مصائب، والصواب هو جمعها على: (المصيبات) قياساً على: (المهلكة، والمشركة = المهلكات، والمشركات... إلخ).

تابع

